سيد قطب

مشاهد القيامة في القرآن

دار المعارف بمصر

الإهـــداء

إلى روحك يا أبى أتوجه بهذا العمل .

لقد طبعت فى حسى — وأنا طفل صغير — مخافة اليوم الآخر . لم تعظنى أو تزجرنى . ولكنك كنت تعيش أمامى ، واليوم الآخر فى حسابك ، وذكراه فى ضميرك وعلى لسانك . . كنت تعلل تشددك فى الحق الذى عليك ، وتسامحك فى الحق الذى لك ، بأنك تخشى اليوم الآخر . وكنت تعفو عن الإساءة وأنت قادر على ردها ، لتكون لك كفارة فى اليوم الآخر . وكنت تجود أحياناً بما هو ضرورة لك ، لتجده ذخراً فى اليوم الآخر . .

وإن صورتك لمطبوعة فى مخيلتى ، ونحن نفرغ كل مساء من طعام العشاء ، فتقرأ الفاتحة ، وتتوجه بها إلى روح أبويك فى الدار الآخرة ، ونحن أطفالك الصغار نتمتم مثلك بآيات منها متفرقات ، قبل أن نجيد حفظها كاملات !

فإلى روحك يا أبى أتوجه بهذا العمل .

ولعله عندك مقبول ، وعند الله مستجاب .

والله الموفق إلى ما فيه الخير والصواب .

ابنك

سيد

بيان

هذا هو الكتاب الثانى فى « مكتبة القرآن الجديدة » التى صح عزمى على إنشائها — بعون الله — كان الكتاب الأول ، هو كتاب « التصوير الفنى فى القرآن » الذى صدرت طبعته الأولى منذ عشرة أعوام . وكانت وظيفته هى بيان « طريقة التعبير فى القرآن » بصفة عامة ، وبسط خصائص هذه الطريقة وسماتها. وقد انتهيت فيه إلى القضية التى بسطتها فى تلك الفقرات :

« التصوير هو الأداة المفضلة فى أسلوب القرآن . فهو يعبر بالصورة المحسَّة المتخيلة عن المعنى الذهنى ، والحالة النفسية ؛ وعن الحادث المحسوس ، والمشهد المنظور ؛ وعن النموذج الإنسانى ، والطبيعة البشرية . ثم يرتقى بالصورة التى يرسمها ، فيمنحها الحياة الشاخصة ، أو الحركة المتجددة . فإذا المعنى الذهنى هيئة أو حركة ؛ وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد ، وإذا النموذج الإنسانى شاخص حى ؛ وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية . فأما الحوادث والمشاهد ، والقصص والمناظر ، فيردها شاخصة حاضرة ؛ فيها الحياة ، وفيها الحركة ، فإذا أضاف إليها الحوار ، فقد استوت لها كل عناصر التخييل . فما يكاد يبدأ العرض حتى يحيل المستمعين نظارة ؛ وحتى ينقلهم نقلا إلى مسرح الحوادث الأول ، الذى وقعت فيه أو ستقع ، حيث تتوالى المناظر ، وتتجدد الحركات ؛ وينسى المستمع أن هذا كلام يتلى ، ومثل يضرب ؛ ويتخيل أنه منظر يعرض ، وحادث يقع . فهذه شخوص تروح على المسرح وتغدو ؛ وهذه سمات الانفعال بشتى الوجدانات ، المنبعثة من

الموقف ، المتساوقة مع الحوادث ؛ وهذه كلمات تتحرك بها الألسنة ، فتنم عن الأحاسيس المضمرة .

إنها الحياة هنا ؛ وليست حكاية الحياة » .

* * *

هذه القضية لدى كل ما يؤكدها من الإحصاء الدقيق لنصوص القرآن . فالقصة ، ومشاهد القيامة ، والنماذج الإنسانية ، والمنطق الوجدانى فى القرآن ، مضافاً إليها تصوير الحالات النفسية ، وتشخيص المعانى الذهنية ، وتمثيل بعض الوقائع التى عاصرت الدعوة المحمدية . . . تؤلف على التقريب أكثر من ثلاثة أرباع القرآن من ناحية الكم . وكلها تستخدم طريقة التصوير فى التعبير . فلا يستثنى من هذه الطريقة إلا مواضع التشريع ، وبعض مواضع الجدل ، وقليل من الأغراض الأخرى التى تقتضى طريقة التقرير الذهنى المجرد . وهى على كل حال محصورة فيما يوازى ربع القرآن .

فليس هنالك من شطط حين أقول : إن « التصوير هو الأداة المفضلة فى أسلوب القرآن » .

وإذا وفقنى الله فأصدرت الحلقات التالية من هذه المكتبة ، وهى : « القصة بين التوراة والقرآن » و « المنطق الوجدانى فى القرآن » و « أساليب العرض الفنية فى القرآن » فسيجد الناس مصداق هذه القضية بين أيديهم . وتستريح إليها ضمائرهم كما استراح إليها ضميرى .

وطريقة التصوير هى أجمل طرائق التعبير ، وأفضلها فى الفن والدين . ويكفى لبيان هذا الفضل — كما قلت فى كتاب التصوير — أن نتصور المعانى فى صورتها الذهنية التجريدية ، وأن نتصورها بعد ذلك فى صورتها التصويرية التشخيصية :

« إن المعانى فى الطريقة الأولى تخاطب الذهن والوعى ، وتصل إليهما مجردة من ظلالها الجميلة . وفى الطريقة الثانية تخاطب الحس والوجدان ، وتصل إلى

النفس من منافذ شتى : من الحواس بالتناسق والإيقاع ، ومن الحس عن طريق الحواس ، ومن الوجدان المنفعل بالأصداء والأضواء . ويكون الذهن منفذاً واحداً من منافذها الكثيرة إلى النفس . لا منفذها المفرد الوحيد » .

« ولهذه الطريقة فضلها ولا شك فى أداء الدعوة لكل عقيدة ؛ ولكننا إنما ننظر إليها هنا من الوجهة الفنية البحتة . وإن لها من هذه الوجهة لشأناً . فوظيفة الفن الأولى هى إثارة الانفعالات الوجدانية ، وإشاعة اللذة الفنية بهذه الإثارة ، وإجاشة الحياة الكامنة بهذه الانفعالات ، وتغذية الخيال بالصور لتحقيق هذا جميعه . . وكل أولئك تكفله طريقة التصوير والتشخيص للفن الجميل » .

* * *

بهذه الطريقة تناول القرآن « مشاهد القيامة » فإذا بعضها ملاحم رائعة ، وبعضها مناظر شاخصة ، وبعضها صور وظلال . وهذه المشاهد هى التى سنستعرضها فى هذا الكتاب .

وفى اعتقادى أننى لم أصنع بهذا الكتاب وبسابقه ، ولن أصنع بلواحقه ، إلا أن أرد القرآن فى إحساسنا جديداً كما تلقاه العرب أول مرة فسحروا به أجمعين ؛ واستوى فى الإقرار بسحره المؤمنون والكافرون : هؤلاء يسحرون فيفرون ! ويقولون : « لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون » ، وأولئك يسحرون فيلبون ، يملأ نفوسهم الإيمان واليقين . والقرآن : هذا الكتاب المعجز الجميل ، هو أنفس ما تحويه المكتبة العربية على الإطلاق ، فلا أقل من أن يعاد عرضه ، وأن ترد إليه جدته ، وأن يستنقذ من ركام التفسيرات اللغوية والنحوية والفقهية والتاريخية والأسطورية أيضاً ! وأن تبرز فيه الناحية الفنية ، وتستخلص خصائصه الأدبية ، وتنبه المشاعر إلى مكامن الجمال فيه . وذلك هو عملى الأساسى فى « مكتبة القرآن » . وقد تناولت هذه المشاهد كما يصورها ظاهر اللفظ الواضح

المشرق البسيط ، لم أحاول أن أعقدها بالتأويلات البعيدة ، ولا أن أدخل عليها مباحث لغوية ودينية لا يقتضيها العرض الفنى الجميل . وفى اعتقادى أن العرب الأولين قد تلقوا الجمال الفنى فى القرآن هذا التلقى ، فتعمق إحساسهم وهزّ نفوسهم قبل أن يعقّده المفسرون والمؤولون .

* * *

تتوزع مشاهد القيامة فى معظم سور القرآن وإن كانت كثرتها بالسور المكية ؛ وقد تحتوى السورة الواحدة أكثر من مشهد واحد ، يطول أو يقصر تبعاً للغرض الدينى فى السياق ، وتمشياً مع أصول العرض الفنية كما سيجىء . وقد استعرضنا فى هذا الكتاب خمسين ومئة مشهد ، موزعة فى ثمانين سورة من أربع عشرة ومئة سورة .

والذى استعرضته هنا هو ما اصطلحنا على تسميته « مشاهد » وهو الذى تتوافر فيه الصورة والحركة والإيقاع . أما المواضع التى ورد فيها ذكر اليوم الآخر مجرداً ، أو ذكر الجنة تجرى من تحتها الأنهار ، أو ذكر العذاب الأليم أو العظيم أو المهين ، دون أن يرتسم منها مشهد شاخص أو متحرك فلم أتعرض لها ؛ وهى كثيرة جداً ، فلا تكاد سورة واحدة من سور القرآن تخلو من ذكر أو إشارة أو تلميح . وكذلك أغفلت القليل من المشاهد القصيرة .

والعجيب حقاً أن تعدد هذه المشاهد — وأساسها واحد — لم ينشىء نوعاً من التكرار . فكل مشهد يختلف عن سابقه فى كلياته أو جزئياته . وذلك لون من الإعجاز شبيه بالإعجاز فى خلق الملايين من الناس ، كلهم ناس ، ولكن لكل سحنة وسمة ، فى هذا المتحف الإلهى العجيب ! ! !

وكانت أمامى طرق عدة لعرض هذه المشاهد وتبويبها . ولكننى اخترت الطريق الاستعراضى مراعياً الترتيب التاريخى — على قدر الإمكان — لورودها ، فعرضتها بترتيب السور التى وردت فيها . ورتبت هذه السور حسب نزولها .

وذلك عمل تقريبى لا جزم فيه . ولكنه هو الطريق الوحيد المتاح لنا فى القرن الرابع عشر من الهجرة .

وما من شك أن هناك نقطة ضعيفة فى هذا الترتيب (حتى على فرض أن هناك يقيناً فى ترتيب السور على نحو معين بحسب تاريخ النزول) فالمعروف أن هذه السور لم تنزل كاملة ، إنما هى نزلت آيات متفرقات بحسب المناسبات . وليس لدينا أى سجل كامل لأسباب النزول وتاريخه المضبوط ؛ وحتى الآيات التى نعرف أسباب نزولها وتاريخه تختلف فيها الآراء وتتعدد فيها الأقوال ، ولا مجال فيها لغير الظن والترجيح .

ولو كان بين أيدينا ذلك السجل الدقيق الذى لا يقوّم بثمن لهيأ لنا فرصة لا تقدر لتتبع مراحل الدعوة الإسلامية وطرائقها فى كل مرحلة ، ولكشف لنا عن العوامل النفسية والعقلية فيها فوق العوامل التاريخية والمحلية . . ولكن هذا كله مع الأسف الشديد لا سبيل إليه الآن بغير الحدس والتخمين .

سرت إذن على طريقة ترتيب هذه المشاهد حسب ترتيب السور التى وردت فيها . وهى طريقة — على ما بها من مآخذ — تهيىء للقارئ أن يستعرض هذه المشاهد خالصة ، ويستجلى جمالها الفنى ، بعيداً عن حذلقات التبويب والتقسيم . وقد استعضت عنهما بفصل مجمل قبل استعراض المشاهد ، تحدثت فيه عن خصائصها على وجه العموم .

وأنا أعلم أن هذه المشاهد لا تبدو فى جمالها الكامل إلا إذا استعرضت مع السياق الذى وردت فيه ، وهذا يقتضى تناول القرآن كله — وهو غير مستطاع هنا — ولكننى حاولت بقدر الإمكان أن أربط معظم المشاهد بالسياق الذى وردت فيه . فحققت ما أريد بعض التحقيق .

* * *

ولما كانت فكرة « العالم الآخر » عميقة فى الضمير البشرى ، حتى لتعد